الحوار الإسلامي المسيحي

د. ق. إكرام لمعي

أولًا: فلسفة الحوار؟... لماذا نتحاور؟ فقه ولاهوت الحوار.

ثانيًا: مدارس الحوار.

ثالثًا: مجالات الحوار.

رابعًا: من هو الإنسان القادر على الحوار؟

أولًا: فلسفة الحوار... فقه الحوار ولاهوته:

إذا أردنا حوارًا عميقًا وناجحًا بين الأديان أو المذاهب المختلفة، فهذا يتطلب تغييرًا في البنية الذهنية لدى أطرافه، لتتحول من بنية معتادة استعلائية تقوم على مجرد (التسامح) مع آخرين غالبًا ما نراهم خاطئين/ قاصرين بالضرورة، نتعاطف فقط مع نقاط ضعفهم وقصورهم، إلى بنية تشاركية تتأسس على (التفاهم) بين ذوات مختلفة، ولكن متكافئة، فلا يوجد طرفٌ ما يملك الحقيقة المُطلَقَة كلها. بل كل طرف يملك مفهومًا خاصًّا عنها، ويتعيَّن عليه قبول فهم الآخرين لها، كي يقبلوا هم أيضًا فهمه أو مفهومه لذاته.

يفترض هذا التحول بدوره تغيرًا جذريًّا في مفهوم (الحقيقة) نفسه؛ فالحقيقة المطلقة (الله)، يعجز أي بشر عن الإلمام بها حتى الأنبياء والرسل. لأن الحقيقة المطلقة في بعض مستوياتها غير قابلة للكشف؛ ذلك لأن الإنسان الذي يدرك ويفهم كل الحقيقة المطلقة يتحول هو إلى أن يكون حقيقة مطلقة للحقيقة التي احتواها وفَهِمَ أبعادها وأدركها، وتتحول تلك الحقيقة المطلقة التي احتواها الإنسان حقيقة نسبية مُدرَكة وليست مطلقة. إذن ما هو لدينا جميعًا على اختلاف أديانا وتوجهاتنا هو مجرد تصورات عنها، شرحها الوحي المقدس شرحًا مبسطًا لكي يفهمها الناس، فالوحي جاء بلُغَة البشر، وعلى قدر عقولهم ومحدوديتهم؛ فعندما

يتحدث الوحي عن الله الجالس على العرش، فهو ملك الملوك، والملك والعرش تعبيرات بشرية للفهم، وعندما يقول الوحي إن الله يرى، فالله يرى لكن بغير عينين، وكيف يرى بغير عينين لا يستطيع إنسانٌ أن يدرك ذلك... إلخ هذه الأمثلة.

فما يحوزه الإنسان من معرفةٍ للحقيقة المطلقة جاء نتيجة تجلّياتٍ لهذه الحقيقة وليست الحقيقة ذاتها؛ لأن الحقيقة المطلقة لا تتعدَّد، فلو افترضنا أن شخصًا واحدًا امتلكها لا يكون ممكنًا لشخص آخر –أيًّا كان– أن يمتلكها.

واحد هو ممتلكها، ومن ثم، فالجميع عدا شخص واحد/ مذهب واحد/ دين واحد من ممتلكيها، ولذلك فالجميع من غيره كفار، وفي الحقيقة العلمية مخطئون وفي القيم الإنسانية كاذبون وفي السياسة خونة وعملاء... إلخ. لذلك لا بد وأن ندرك أن الحقيقة بطبيعتها مُطلَقة في ذاتها، نسبية في فهمها، وفهمها بطريقة نسبية يتساوى بين البشر؛ إذ بقدر ما يطرح الشخص الإنساني من رؤى ذاتية عن الحقيقة المطلقة (الله)، يتعين عليه أن يؤمن بقدرة الآخرين جميعًا –وليس المميزين فقط– على طرح رؤى متمايزة، من هنا تأتي السماحةُ والعيش المشترك بين المختلفين.

- السماحة وليس التسامح، والعيش المشترك وليس التعايش؛ فالتسامح مع الآخر يعلن أن الآخر مخطئ وأنا أتسامح معه، أما السماحة فهي صفة في الشخص يقبل من خلالها كل المختلفين معه على كل الأصعدة؛ دينيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا وعرقيًّا وجنسيًّا... إلخ. والعيش غير التعايش؛ فالتعايش يعني العيش المتضرِّر (جار السو) لكن العيش معًا يعني سعادة أن نحيا معًا على اختلافنا، فالاختلاف هنا ثراء.

في هذه الحالة، لا حاجة لاستخدام القوة أو العنف لقمع طرفٍ من الأطراف، طالما كان المجال مفتوحًا للجميع للتعبير عن رؤاهم والمشاركة في تقرير مصائرهم، عبر حوار مفتوح دائمًا بين ذوات واعية وصولاً لأكثر الحقائق موضوعية.

هذا المستوى من السماحة والعيش المشترك داخل الجماعة الثقافية إذا ما أُريدَ تعميمُه كي يشملَ الجماعة البشرية بأكملها، عبورًا على الأديان والمذاهب المختلفة، إنما يستلزم فهمًا نسبيًّا موازيًا لفكرة (الخلاص) التي تقع في مركز كل الأديان تقريبًا وتتحكم بنظرة كلٍّ منها إلى الآخر المختلف، وبالأحرى نظرة أتباع كل دين إلى أتباع الأديان الأخرى.

فهل يحتكر كل دين على حدة طريق الخلاص للوصول إلى الجنة أو السماء، لا شك أن كل أتباع دين/ مذهب يعتقدون أن طريقهم للخلاص هو الطريق الوحيد له، وغيره زندقة وهرطقة وفسوق وعصيان، وبما أنهم يمتلكون الطريق الصحيح والوحيد لله، فيجب أن يفرضوه على الآخرين بالتبشير أو بالدعوة، ومن هنا جاءت الحروب العَبَثية والمذهبية، حتى داخل الدين الواحد، بين الشيعة والسنة وبين الكاثوليك والبروتستانت. والمشكلة هنا أنه لا يوجد طريق –مهما كان– يضمن الوصول للجنة أو السماء؛ فالوصول للجنة أو السماء والوصول للنار مسؤولية الإنسان الفرد إذا كان مخلصًا للطريق الذي يسير فيه طالبًا وجه الله، وهذا الإخلاص لا يدركه إلا الله عز وجل.

إذن كل طريق من الطرق يمكن أن يصل بالإنسان المخلص إلى الله؛ وذلك لأن بإخلاصه في توجهه نحو الله سيقوم الله بتوضيح الطريق وتصحيح المسار له، وكل طريق من الطرق مهما كان لا يمكن أن يصل بالإنسان غير المُخلِص.

إذن المفهوم النسبي عن الخلاص يدعونا إلى تجاوز مفهوم التسامح إلى مفهوم التفاهم، والفارق بينهما كبير رغم التشابه الظاهري؛ فالتسامح استعلاء، ولم يمنع فكرُ التسامح الحروبَ الدينية ولا المذهبية ولا الإبادة أو التهجير الجماعي، أما التفاهم فيقوم على تعدُّد وجوه الحقيقة وليس على أحاديتها؛ فالحقيقة واحدةٌ لكن لها وجوهًا كثيرة وتجليات متعددة، ولذلك فكل من يدرك وجهًا من وجوه الحقيقة عليه أن يدرك أن الآخرين رغم اختلافهم في الإيمان بما يؤمنون به، إلا أنهم يملكون قدرًا أو وجهًا أو أحد تجليات الحقيقة وربما –وهذا من حقه– يدرك أن

مقدار ما يملكه من الحقيقة ربما أكثر أو يفوق ما يملكه الآخرون منها، ولذلك هو متمسك بإيمانه الأسمى كما هو. غير أن الأمر هنا يصبح محصورًا في الأكبر عن الأصغر وتلك هي نسبية الحقيقة.

من هنا لم يعد الخطأ هناك والصواب هنا أو العكس. وعندما نتحدث عن الخطأ هنا والصواب هناك نجد أن الحقيقة المطلقة تتحول إلى حقيقةٍ بسيطةٍ واختزاليَّةٍ إلى حدِّ السذاجة، وهذا تفكيرٌ غير علمي وغير منطقي.

وهكذا يحتوي مفهوم التفاهم على سماحةٍ أصيلةٍ ودائمةٍ تنطلق من تعدُّد جوانب الحقيقة المطلقة، وتعدُّد تجلياتها. ومن إيمان أصيل وصادق بنسبية الفهم الإنساني غير القادر على الإلمام بكل جوانب وتجليات الحقيقة؛ فنتواضع تواضعًا عميقًا أمام الحقيقة المُطلَقة اقتناعًا بفهمنا النسبي لها، وهكذا نكتشف أقدارًا عظيمة ومختلفة من الخير والحب والجمال والحق في جميع الأديان والمذاهب وهكذا يكون الحوار ثراءً يخلو من الاستعلاء على الآخر.

وهنا نعيش في أمان خاضعين للصدفة سواء السعيدة التي تأتي بحاكم مستنير له ضمير إنساني، أو الصدفة التعيسة التي تأتي بحاكم متعصب سفاح مغامر ميال إلى إراقة الدماء. وهكذا يحفظ التفاهم للمؤمن بالله مهما كان دينه أو مذهبه حقه في السعي إلى الخلاص الأبدي الميتافيزيقي (بعد الموت) الذي يلهمه، وفي نفس الوقت يصون لغير المؤمن بهذا الخلاص الأبدي الميتافيزيقي حقه في السعي إلى الخلاص الواقعي الدنيوي من ربقة العنف والعبث حيث تنتهي مطاردتهم من المؤمنين بالله بالسيف والقتل والحرق... إلخ. وهكذا يتحول العالم الحاضر إلى عالم إنساني بامتياز.

ثانيًا: مدارس الحوار:

هناك مدرستان رئيسيتان للحوار:

– مدرسة المونولوج monologue إنسان يتحدث إلى نفسه.

– مدرسة الديالوج Dialogue اثنان يتحاوران معًا.

أصحاب المونولوج: يتخيلون الآخر أمامهم، ثم يسألون أسئلةً ويجيبون عليها. فمثلًا يثبتون بآيات القرآن أن المسيح هو ابن الله؛ لأنه كلمة الله وروح منه، أو يستخرجون موت وقيامة المسيح من القرآن، والمسلمون منهم يثبتون أن الكتاب المقدس تنبأ عن مجيء نبي الإسلام. وكل منهما يستخرج الأخطاء التاريخية واللغوية والتناقضات. وعيوب هذه المدرسة هي:

1– إنها تتحدث عن إسلام غير موجود ومسيحية غير موجودة على أرض الواقع إنه خيال العلماء وهم يعتبرون ذلك حوارًا، وهو لا يَمُت للحوار بصلة.

2– إذا كان شخصٌ يفسر آيةً في القرآن تتحدث عن ألوهية المسيح بحسب تفسيره الظاهري للآية، هنا هو يعترف بوحي القرآن، وإذا كان القرآن موحى به من الله فلماذا تنتقي منه الآيات التي تعجبك وتروقك وترفض التي لا تعجبك ولا تروقك، والعكس صحيح، إذا كان المسلم يفسر الكتاب المقدس على أنه تحدث عن مجيء الرسول، فلماذا ينتقي هذه الآيات ويفسرها بطريقة خاصة ويترك باقي الآيات التي لا تسير على منهجه.

3– إن هذه المدرسة وما يتفرع منها من دفاع وهجوم تغرس تعصبًا شديدًا بين البشر.

أصحاب الديالوج: حوار حقيقي موضوعي بين اثنين أو أكثر وهنا يعبِّر كل طرف عن إيمانه لكي يثري الآخر ويضيف إليه، وهذا يُحدِث تقاربًا بين أتباع الأديان، ويصنع نوعًا من المسامحة والقبول للآخر، وهي تعتمد على الموضوعية والمنطق في الحوار.

فمثلًا المقارنة بين السيد المسيح والقرآن في الأزلية الأبدية والعصمة، وأنهما غير مخلوقين، وأنهما كلمة الله وارتباطهما الدائم بالله. وتعتمد أيضا على علاقة الدين بالحضارة: كل حضارة قامت على دين ما، وكل دين لديه نفس القِيَم. والاختلاف ليس على القيم لكن على ترتيبها ما ندعوه (سُلَّم القيم):

الحضارة المسيحية	الحضارة الشرقية
1– الحب	الشرف
2– الصدق	الشهامة
3– الشرف	الشجاعة
4– الكرم	الكرم
5– الشجاعة	الصدق
6– الشهامة	الحب

وبالطبع مدرسة الديالوج هي الأبقى للمستقبل.

ثالثًا: مجالات الحوار:

1– الحوار اليومي (الحياتي):

العلاقات اليومية بين البشر.

2– الحوار الأدبي:

الأفراح والعزاء– البناء والتجديد– الصداقات– الشراكة... إلخ.

3– الحوار الروحي:

الحياة الروحية موضع التقاء بين المسيحيين والمسلمين.

- راهب هندي معاصر يعلم تعليمًا روحيًّا من خلال القصص والحكايات جُمِعت له عدة حكايات في كتاب. إحدى هذه القصص أن تلاميذه كانوا مشغولين بأسئلةٍ عن الله، فسألوه من هو الله؟ أو الحقيقة المطلقة؟

فقال: الله غير معروف، ولا يمكن أن نلم به وكل بيان عنه أو رد على أسئلتكم سيكون قاصرًا لأنه جزء من الحقيقة.

اندهش التلاميذ واحتاروا وسألوه: في هذه الحالة لماذا نتكلم عنه إذن؟ فقال: لماذا يغرد الطير ويغني؟ لا يغرد الطير لأنه يريد إلقاء بيان أو شرح عن الله إنه يغرد لأن لديه أغنية.

الروحانيات في الإسلام، والروحانيات في المسيحية، التصوف في الإسلام ومواهب الروح القدس في المسيحية، لا تتحدث وتشرح عن ماهية الله لكنها تغني لله، وما أحلى وأجمل أن نغني معًا ونسمع أغاني بعضنا البعض في مدح الله، والارتقاء بالذات. هذا مُشتَرَك رائع وجميل. عندما نتحدث معًا عن خبراتنا الروحية سوف نثري بعضنا البعض وندخل إلى أعماق روحية لم نكن نحلم بها. الحياة الروحية كموضع التقاء، هي مجال استقبال الآخر المختلف عني في داخل حياتي وقلبي باسم الله. البُعد الروحي هو الذي عبَّر عنه أبو حامد الغزالي وباسكال بـ"معرفة القلب" إن البعد الروحي يدخل العلاقة بالله في كلِّ ما نعيشه وخاصةً في علاقتنا بالآخرين (جميع الآخرين).

4– الحوار الفكري:

إنه التفكير المُشتَرَك في القضايا الإنسانية العُظمى المُشتَرَكة، مثل حقوق الإنسان وحقوق الأقليات والمرأة والطفل، وقضايا الحرية؛ حرية التعبير وحرية العقيدة والتنمية والعدالة والسلام والأخلاقيات بوجه عام. نستطيع القول "لأننا نقف معًا أمام الله، لذلك نقف معًا في الدفاع عن الإنسان".

5– الحوار الخدمي:

يقع على عاتق جميع الأديان أن تتضافر جهودُها البشرية والروحية لمواجهة مشاكل العصر العويصة: الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية والفقر والجهل والأمية ومستقبل البيئة

في الكرة الأرضية، وذلك في سبيل عالمٍ أكثر عدالةً ومساواةً وتكافؤًا، وفي نهاية المطاف أكثر إنسانية.

6- الحوار الديني (اللاهوتي الفقهي):

هدف هذا النوع من الحوار تذليل عقبات عدم فهم الآخر على حقيقته؛ فمن المفيد أن يعرض كلُّ طرف بوضوح ما يؤمن به، وأن يستمع الآخر بتركيز واحترام؛ لأن هذا من شأنه أن يصحِّح الآراء المسبقة والمفاهيم الخاطئة. وهذا النوع من الحوار يتطلب درجةً عاليةً من النضوج والرشد التي تفتقر إليها مجتمعات كثيرة.

رابعًا: من هو الإنسان القادر على الحوار؟

السؤال ليس هل نتحاور أم لا؟ فكلنا في حوار دائم طوال اليوم في أمور شتَّى، لكن السؤال هو: ما هي قدراتك في -أو على- الحوار؟ الحوار الحقيقي صعب المنال، والحوار الجاد يحتاج إلى إمكانات شخصية، وعلينا أن نتجنب أمرين:

الأول: الجدل؛ فالحوار ليس هدفه إقناع الآخر بما ندين.

الثاني: التنازل والمساومة.

فالحوار الديني ليس عملًا سياسيًّا يعتمد على فن التنازل والتواطؤ، بل هو أرفع مستوى، يفترض الصراحة التامة ويقتضي من كل طرف أن يعبِّر عن نفسه تعبيرًا كاملًا دون تهجم ولا تنازل. إذن ما هي مواصفات الشخص الذي لا يجادل ولا يتواطأ أو يتنازل، القادر على الحوار البنَّاء:

1- تأمَّل قاموس مفرداتك عندما تُعرض عليك مسؤولية أو القيام بمهمة (الحوار):

- مش هاقدر.
- مش عارف.

- أنا متردد.
- جربت قبل كده ومانبسطش.
- الموضوع حساس شوية.

أو مفرداتك هي:

- لأ ممكن.
- أنا متأكد إني هاحقق حاجة رغم صعوبة الأمر.
- أنا جربت قبل كده والنتيجة ماكنتش مشجعة لكن هاجرب تاني.
- رغم حساسية الموضوع لكن ربنا يسهل.

2– إزالة العوائق الداخلية التي في طريق الحوار:

أ. التعصب: هناك عدة تعريفات للتعصب؛ مثلًا: التعصب هو عدم النظر إلى الإنسان الفرد كقيمةٍ في حدِّ ذاته بغضِّ النظر عن انتماءاته العرقية أو الجنسية أو الدينية. أو التعصب هو التفكير الخاطئ (المريض) من نحو الآخرين دون مبرِّر منطقي؛ فهو شعور مُسبق بقبول أو رفض إنسان، أو فكر غير مُؤسَّس على خبرة حقيقية، أو موقف رفض عنيف لإنسان ينتمي إلى جماعة مرفوضة لا لشيء إلا لأن هذا الإنسان ينتمي إلى تلك الجماعة، وبذلك يفترض أن فيه كل عوامل الرفض التي أدت إلى رفض الجماعة.

ب. الانطوائية.

ج. العصبية.

د. افتقاد قدرة التعبير عن الذات.

وهذه المشكلات تحت تحكمك 100% وهنا عليك أن تحدد ما هي مشكلتك أو مشكلاتك مع الحوار، ثم تضع برنامجًا للانتقال من الهزيمة إلى النصر، من كونك انطوائيًّا إلى اجتماعيٍّ، من التوتر إلى الثقة، وتحدد برنامجًا زمنيًّا للخروج من الأزمة، وهذا نسميه الانتصار الداخلي.

3- اكتساب فكر ومهارات ومبادئ الحوار:

أ. لا يوجد شخص على حق 100%، ولا يوجد شخص ليس على حق 100% لأنه لو كان الأمر هكذا لما كانت هناك مشكلة.

هذا المبدأ ينطبق على كل الحوارات؛ مع الزوجة، الأولاد، الصديق، زميل العمل. إذن يجب تحديد نقاط الخلاف التي يجري حولها الحوار.

ب. الفهم والتفهم:

الفهم هو أن تعبِّر عن نفسك بطريقة واضحة بلا لبس، والتفهم هو أن تتفهم موقف الذي أمامك.

- لا تسأل أسئلة إجابتها نعم ولا، فهي تغلق المناقشة.

ج. التجديد:

1. تجديد الذهن: الثقافة– التفكير العلمي– الأدب– الموسيقى.

2. تجديد الجسد: الصحة.

3. تجديد الروح، ممارسة الصمت والتأمل والعلاقة مع الله في نوعية الروحانية التي تنتمي إليها.

الخاتمة:

يقول الفيلسوف دريدا عن هيغل "ما يواجهنا اليوم إنما هو قديم مخبأ في التاريخ"، وهذه مقولة سلفية "لا جديد تحت الشمس" وهذا يتجلى في الحوار الديني كصراع أصوليات. وحقيقة ما نظنه فكرًا جديدًا سوف نجد أصله أو شبهه في الكتب التاريخية القديمة والكتب المقدسة.

هنا لا بد وأن نميز بين الإعادة والتكرار.

"فالإعادة ضرورة والتكرار فائض"، ويمكن القول: "الإعادة ليست إلا ضرورة أما التكرار ففيه فائض "فيه كل الفائض".

- تطابق الإعادة بين الوجود والحضور فتقتل الاختلاف بينهما؛ أي بين الوجود في التاريخ والحضور اليوم.. أي أستشهد بآيات كتبت من آلاف السنين، وأستشهد بتفاسير لها وفِقْه قديم؛ وأرددها بتفسيراتها دون تجديد للفكر.
- هذا الأسلوب يجمد الكائن ويلبد الفكر، ويقمع الخيال ويكلس اللغة ويخشب الكلام، ويقتل الاجتهاد فيتكرس التقليد، فتسير أبداننا إلى الأمام ووجوهنا تنظر للخلف، فتقع الكوارث، أما التكرار فهو ليس عودة المطابق، التكرار هو إعادة قراءة النص المقدس والتراث وأخذ المكرر نحو منحى آخر، نحو آخر، وأطلق على هذا انبثاق جديد في عملية الاستعادة والترديد. التكرار إذن هو ما وراء ديناميكية خلق الهوية المنفتحة، فالهوية المنغلقة (فرعوني، مصري، مسيحي، مسلم، شيعي، سني، أرثوذكسي، إنجيلي، كاثوليكي) هذه الهوية يمكن أن تحبسنا داخلها في زمن قديم دون نظر للتحديث، للحضارة، لزمن ما بعد الحداثة وما بعد الميتافيزيقيا، هذا إذا كنا نتبنى الإعادة، لكن لو تبنينا التكرار فهذا معناه الهوية المنفتحة المكررة بفائض إضافة لغات جديدة على الهوية، ثقافة جديدة ارتقاء جديد... إلخ. وهنا ينبثق التجديد من عمق التقليد، وترد إلى التقليد غناه وثراءه فتسمح لنا بأن نردد القول القديم "وأن نقوله مرة أخرى أول مرة".